الأنباط والبترا في المصادر العربية

أحمد أسعد لاش

Abstract

Most scholars agree that there is a lack of information about Petra and the Nabataeans in the Arabic sources, particularly in the early Islamic sources where Petra is not mentioned. However, this article shows that in the period between the diminishing of the Petra dominance in the region in the 4th, 5th and 6th centuries and the earliest Islamic historians in the 8th century, Petra had no ruler worthy of mention in the major battles of the Islamic conquests in the second quarter of the 7th century. However, Nabataeans were well known in many of Arabic sources by the name Nabaṭ and Annbaṭ. The Greek name for Petra was not used but its Nabataean name, Raqmu or ar-Raqeem was well known to the Arabs as a small city carved in rock as one unit, located not so far from Palestine and close to Ayla (Aqaba). The Holy Qur'an mentions many places in the Arabic peninsula, Mesopotamia, Egypt and in the Levant including ar-Raqeem in surat al-Kahf as a place where the miracle of the seven sleepers took place.

بدايةً لابد لي أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأساتذة د. فوزي زيادين ود. غازي بيشه ود. خيرية عمرو لتفضلهم بقراءة مسودة هذا المقال وتقديم ملاحظاتهم القيمة التي استفدت منها استفادة جمّة في هذا البحث.

منذ أن قام الرحالة السويسري بيركهارت بإعادة اكتشاف البترا سنة ١٨١٢ وتقديمها للعالم، لم تتوقف أعمال البحث العلمي والتنقيب الأثري في تلك المدينة حتى يومنا هذا، فقد عمل الباحثون والمؤرخون العرب والأجانب جاهدين لسبر أغوار التاريخ والبحث بكل ما يختص بحضارة البترا والأنباط وتاريخهم وامتداد دولتهم التي غطّت مساحة كبيرة من المشرق، امتدت في أوجها من دمشق وحتى شمال الجزيرة العربية وصولاً إلى سيناء غرباً، فكانوا أسياد التجارة في العالم القديم منذ القرن الأول قبل الميلاد وحتى بدايات القرن الثاني الميلادي، وبالرغم من خضوع دولتهم للسيطرة الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد (Frösén *et al.* 2002) إلا أن حضارة البترا استمرت لقرون عديدة بعد ذلك، وقد كان للزلزال الذي ضرب المنطقة سنة ٣٦٣ للميلاد أثره المدمّر على البترا (Frösén *et al.* 2002)، وإن كانت الشواهد الأثرية المكتشفة مؤخراً أثبتت وجود استمرار للاستيطان البشري في البترا بعد هذا الزلزال استمرت حتى القرن السادس الميلادي وإن كان بصورة أقل، وقد اتخذ شكلاً مختلفاً من النشاط السكاني الذي يبدو أنه أصبح يركز أكثر على الجانب الزراعي على حساب النشاط التجاري (Amr 2011: 305-313) فشهدت تلك الفترة توسعاً سكانياً خارج حدود مدينة البترا بحثاً عن مساحات أكثر ملائمة للنشاط الزراعي.

وخلال القرنين السابقين عمل الباحثون والمؤرخون على توثيق كل ما يتعلق بالبترا والأنباط من ذكر أو إشارة في المصادر التاريخية سواءً المصادر الأشورية أو الفارسية أو اليونانية أو الرومانية، وقد نُشرت العديد من الأبحاث و الكتب في هذا المجال، وكان الإستفسار الدائم هو لماذا لم يتوفر في المصادر العربية الإسلامية المبكرة ذكر عن البترا؟ علماً أن الاكتشافات الأثرية المتأخرة «كما أشرنا سابقاً» أثبتت استمرار الوجود السكاني في البترا حتى القرن السادس الميلادي كما في كنيسة البترا (Amr 2011: 305-313)، أي في الفترة التي شهدت بها قريش أوج نشاطها التجاري بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها والتي ظهر بها ما يعرف بالإيلاف الذي أسسته قريش كنظام للتنقل الآمن للقوافل التجارية المارّة بالجزيرة العربية، وتلك ليست بالفترة الزمنية الكبيرة التي تفصلها عن البعثة النبوية الشريفة في حوالي ٦١٠ ميلادي. فنجد في المصادر الإسلامية المبكرة ذكراً لتاريخ العرب وقبائلهم وأنسابهم وآلهتهم وعباداتهم ابتداءً من اليمن في جنوب الجزيرة العربية وصولاً إلى تدمر في البادية السورية، في حين يشير الباحثون إلى غياب ذكر البترا في تلك المصادر العربية وهي الملاصقة لبلادهم في شمال الجزيرة

العربية. وهذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال هذا البحث.

وقبل الخوض في غمار هذا البحث لابد أن نشير إلى أن المصادر العربية التاريخية التي أرّخت لبدايات الفترة الإسلامية ولما سبقها من التاريخ العربي قد ابتدأت في القرن الثاني الهجري والذي يعتبر محمد بن إسحق أهم مؤرخيه والذي اختص (كغيره من المؤرخين) في توثيق السيرة النبوية الشريفة وما تلاها من أحداث إلى أن يصل للزمان الذي عاش فيه، ويعتبر ابن اسحق صاحب كتاب (سيرة رسول الله) هو شيخ المؤرخيّن العرب وأقدمهم، وإن سبقه بعض من كتب في التاريخ في القرن الأول الهجري كسليم بن قيس الهلالي وعبيد بن شربه وعلاقة بن كرشم، إلا أن ابن إسحق يعتبر المرجع الرئيسي لمن عاصره ولمن جاء بعده من المؤرخين، وهو الذي ولد سنة ٨٥ للهجرة /٧٠٣م وتوفي سنة ١٥١ للهجرة /٧٦٨م، إلا أن كتابه هذا قد فُقد ولم يصلنا منه إلا ما هذّبه ولخّصه عبدالملك بن هشام والمعروف بابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هجري/٨٣٣م صاحب ما يعرف بسيرة ابن هشام، وباستعراض بسيط لأبرز المؤرخين الأوائل للتاريخ العربي الإسلامي نذكر:

هشام بن محمد الكلبي والمعروف بالكلبي والمولود سنة ١١٠هجري /٧٢٨م والمتوفى سنة ٢٠٤ هجري /٨١٩م، كذلك محمد بن عمر الواقدي المولود سنة١٣٠ هجري /٧٤٧م والمتوفى سنة ٢٠٧ هجري /٨٢٣م، ومحمد بن على المدائني المولود سنة ١٣٥ هجري /٧٥٢م والمتوفى سنة ٢٢٥ هجري /٨٤٠م، ومحمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى والمتوفى سنة ٢٣٠ هجري /٨٤٥م، وخليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠ هجري /٨٥٤م ، واحمد بن اسحق اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤ هجري /٨٩٧م واحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٩٧هجري /٩١٠م، ومحمد بن جرير الطبري المؤرّخ الأشهر في التاريخ العربي الإسلامي والمولود سنة ٢٢٤هجري /٨٣٩م والمتوفى سنة ٣١٠هجري /٩٢٣م.

هؤلاء بشكل موجز أهم من كتب ووثق التاريخ العربي الإسلامي في بداياته، ومن جاء منهم لاحقاً أخذ ممن سبقه وأضاف عليه ولكل منهم طريقته في تحرّي الدقة وتحقيق الرواية والسند حسب المعايير الخاصة به والتي كانت تختلف من شخص لآخر، فكان لتوثيق ما ورد من أخبار السيرة النبوية النصيب الأكبر من كتابات أوائل المؤرخين، حيث كان علم نقل الحديث في بداياته ومحاولة تتبع سند الرواية التي تخص السيرة النبوية قدر الإمكان وإن كانت الكثير من الأسانيد قد تم مراجعتها وتدقيقها في وقت لاحق عندما توسع علم الحديث وعلم الجرح والتعديل، أما فيما يختص بالتاريخ العربي قبل الإسلام فقد تناقلته الرواية الشفهية، والتي أخذت الطابع القصصي في بعض الأحيان وشابها بعض من عدم الدقة التي قد تصل إلى مرحلة الأساطير أحياناً أخرى (الحوت ١٩٥٥).

وبمتابعة بسيطة لأهم التواريخ الخاصة بالسيرة النبوية الشريفة نلاحظ أن مولد الرسول صلى الله عليه وسلّم كان بمكة المكرّمة في حدود سنة ٥٧١م وكانت بعثته في حدود سنة ٦١٠م، وهجرته سنة ٦٢٢م، ووفاته صلى الله عليه وسلم سنة ٦٣٢م، في حين أن أهم وأوائل الكتابات التاريخية التي تناولت التاريخ العربي الإسلامي قد ابتدأت كما أشرنا سابقاً في القرن الأول والثاني للهجرة أي بفترة قريبة نوعاً ما من الأحداث الرئيسية في التاريخ الإسلامي وهي بعثة الرسول الكريم وهجرته ووفاته ومرحلة الفتوحات الإسلامية المبكرة.

وبالعودة إلى المحور الرئيسي في بحثنا هذا وهو البترا والأنباط فنجد أن هذه الدولة العربية التي بلغت أوجها في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي قد مرّت كما هو حال الكثير من الدول بمرحلة النشوء ثم القوّة والتمدد ثم الضعف والإضمحلال فالتلاشي، فكان خضوعها للسيطرة الرومانية سنة ١٠٦م من الأحداث الهامة على هذه الدولة العربية، إضافة إلى بروز دولة تدمر كقوة تجارية في المنطقة على حساب النفوذ النبطي، إلا أن الزلزال الذي ضرب المنطقة سنة ٣٦٣م كان له الأثر الأكبر فيما يبدو على حضارة البترا ليس فقط بتدمير بعض المنشآت المعمارية بل بتأثيره على النظام المائي الذي اشتهرت به البترا وكان اعتمادها عليه في تلك الصحراء القاحلة وتدميره للقنوات المائية في أجزاء واسعة من المدينة، إلا أن الدلائل الأثرية تشير إلى استمرار الوجود السكاني في المدينة حتى منتصف القرن السادس الميلادي ولو بصورة أقل إلا أن ما تبقى من الحضارة النبطية في البترا لم يستطع الصمود أمام ضربة زلزالية أخرى ضربت المنطقة سنة ٥٥١م (Niemi *et al.* 2009) والتي يبدو أنها قد أنهت ما تبقى من وجود مدني في مدينة البترا. وعند العودة إلى المصادر العربية الإسلامية من كتب السّير والمغازي والتي رصدت الأحداث الهامة في التاريخ الإسلامي وخاصةً ذكر المواقع والأماكن الجغرافية خلال الغزوات لا نجد ذكراً لمدينة البترا، فهذا هو الجيش الإسلامي يتحرك في السنة الثامنة للهجرة/٦٢٩م في غزوة مؤتة منطلقاً من المدينة المنورة نحو بلاد مؤاب متوقفاً في معان التي لا تبعد أكثر من ٤٠كم عن البترا دون أن يكون هنالك أي ذكر لمدينة البترا في كل كتب السيرة التي تناولت تلك الغزوة، وفي السنة التاسعة للهجرة/٦٣٠م ينطلق الرسول صلى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك ويتوقف هو وأصحابه في منطقة الحجر (الطبري ٣: ١٠٥) قبل أن يبلغ تبوك «وهي المدينة النبطية المعروفة بمدائن صالح» ثم يكمل الجيش الإسلامي طريقه نحو تبوك تاركاً تلك البقعة الخالية من السكان، ولدى وصوله تبوك في شمال الجزيرة العربية يقيم بها بضع عشرة ليلة، حيث جاء يحنّة بن رؤبة صاحب آيلة إلى رسول الله وصالحه وأعطاه الجزية وكذلك صالح أهل جرباء وأذرح وأعطوا الجزية وكتب رسول الله لكلٍ كتاب، كما صالحه أكيدر دومة الجندل على الجزية (الطبري ٣: ١٠٩) وبالرغم من وقوع هذه الأحداث ضمن مناطق جغرافية قريبة من البترا إلا أن كل كتّاب التاريخ الذين تحدثوا عن هذه الغزوة لم يوردوا بها أي ذكر للبترا، مما يرجّح فرضية أن البترا في تلك الفترة كانت خالية أو شبه خالية من التواجد السكاني بصفته المدنية على الأقل. أما بالنسبة للفتوحات الإسلامية التي أعقبت وفاة الرسول الكريم في السنة ١١ للهجرة/٦٣٢م والتي انطلقت في بدايتها من المدينة المنورة باتجاه العراق وبلاد الشام، والتي أسهبت كتب السير في الحديث عنها من حيث التواريخ وقادة الجيوش والفِرَق وتحركاتها والأماكن التي مرّت

بها، وبالأخذ بعين الإعتبار أن شرق الأردن كان مسرحاً لأهم المعارك في الفتوحات الإسلامية وقد ذُكرت الكثير من المناطق به إلا أن البترا لا يوجد لها ذكر في أيٍّ من تلك الأحداث.

فإذا كانت تلك المصادر قد صمتت عن ذكر البترا، فهل صمتت أيضاً عن ذكر الأنباط؟

لا شك أن الأنباط هم من القبائل العربية (زيدان ١٩٢٢) ووجودهم في شمال الجزيرة العربية يعني إشتراكهم مع سكان شبه الجزيرة العربية في الثقافة واللغة والديانة، فالإله الرئيسي للأنباط (ذو الشرى) كان من الآلهة ذات المكانة في شبه الجزيرة العربية وقد صنفه سليم الحوت تحت باب آلهة الأماكن (الحوت ١٩٥٥)، ويذكر هشام الكلبي أنه كان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد صنمٌ يقال له ذو الشرى وله يقول أحد الغطاريف:

إذن لحللنا حول ما دون ذي الشرى وشجَّ العدى منا خميس عرمرم (الكلبي ١٩٢٤). وقد ذكرت الآلهة المشهورة في شبه الجزيرة العربية مثل مناة واللات وهبل في نقوش مدائن صالح النبطية (جوسن وسفنياك ١٩٩٧)، كما ورد اسم (اللات) بكثرة في نقوش وادي رم (زيادين وفارس ١٩٩٨) وفي نقوش البترا ظهرت اللات والعزّى بأسماء مختلفة (Starcky *et al.* 1976/68). فبالرغم من القرب الجغرافي والإشتراك الثقافي فإنه من الغريب أن يغيب ذكر البترا وملوك الأنباط في المصادر العربية المبكرة، في حين نجد بها ذكراً يكاد يكون تفصيلياً لتدمر وملوكها مثل أذينة ووهب اللات والملكة زنّوبيا التي عرفت بالمصادر العربية بإسم (الزبّاء) وحكمت مملكة تدمر خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، فكيف لا تُغفل المصادر العربية الحديث عن تاريخ تلك الدولة التدمرية التي تقع على ضفاف الفرات والتي تقرب الفترة الزمنية الفاصلة بينها وبين أوائل المؤرخين العرب من الخمسة قرون، في حين نجدها صامتة عن البترا وتاريخها! قد يكون جواب ذلك هو ما نقله الطبري عن هشام الكلبي «أنه استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من بيّع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها» (الطبري ١: ٦٢٨)، فمعظم ما تناقلته العرب عن التاريخ وأحداثه قبل الإسلام يدخل تحت بند التاريخ الشفهي غير المكتوب والذي قد يخالطه عدم الدقة في بعض الأمور والتهويل في بعضها الآخر، وقد يسقط ذكر أقوام بانتهاء كياناتهم، وهذا ما قد يكون حدث بالنسبة لذكر البترا والأنباط، خاصة إذا أخذنا بعين الإعتبار أن بداية التوثيق التاريخي في الحضارة الإسلامية العربية قد بدأت في القرن الثامن الميلادي أي بعد بداية أفول نجم دولة الأنباط وما لحق ذلك من تدهور لمكانة دولة الأنباط عقب زلزال ٣٦٣م، وما قد تكون شهدته المدينة من شبه خلو للتواجد المدني عقب زلزال ٥٥١م، فإننا نتحدث عن فجوة زمنية تمتد ما يقرب من القرنين على بداية التوثيق التاريخي وآخر مراحل التواجد النبطي المدني، أما بالنسبة لتدمر فيبدو أنها قد شهدت نوعاً من الإستمرار في التواجد السكاني – ولو ليس بالشكل الذي كانت عليه – حتى الفترات الإسلامية المبكرة. وبما أن العرب قد ورثوا الكثير من مصادر التاريخ الفارسي، ولعل احتضان الدولة العربية الإسلامية للكثير من العناصر الفارسية في جسمها ونشاط أعمال الترجمة من الفارسية إلى العربية قد أتاح الفرصة للتعرف على ما ورد في التاريخ الفارسي المكتوب والذي كانت أخبار تدمر جزء منه بشكلٍ أو بآخر وإن خالطها شيء من عدم الدقة، وهذا ما قد لا يكون قد توفّر عند الإشارة إلى البترا أو الأنباط، ولكن ألا يوجد ذكر للأنباط في المصادر العربية ؟

لقد تناول الكثير من الباحثين البحث في مسمى (النبط) وتاريخه وجذوره وما يعرف بنبط العراق أو نبط السواد ونبط الشام (زيدان ١٩٢٢) وهذا موضوع لا يتسع مجال بحثنا في الخوض فيه، أما لفظ (النبط) في اللغة العربية فيورده ابن منظور في كتابه لسان العرب انه «الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت» «والنبط إنما سمُو نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين»، ومما لاشك فيه أن النظام المائي الذي استخدمه الأنباط هو من السمات المميزة في حضارتهم، كما يورد ابن منظور قولاً لعمر بن الخطاب «تمعددوا ولا تستنبطوا أي تشبهوا بمعد ولا تشبّهوا بالنبط» (ابن منظور ٢٠٠٣)، أما جورجي زيدان فيورد ما ذكره الأصفهاني أن «الأرمانيون نبط الشام والأردوانيون نبط العراق» (زيدان ١٩٢٢)، في حين يصف المقريزي النبط بأنهم «بقايا الصابئة» (المقريزي ١٠٥ :١)، أما محمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى والمتوفى سنة ٢٣٠ للهجرة/٨٤٥م فيذكر في الجزء الأول من كتابه الطبقات الكبرى، صفحة ٣١ أن هاشم والد جد الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم التقى بزوجته سلمى بنت عمرو من بني النجار في سوق النبط وهو في طريقه إلى المدينة فتزوجها وأنجب منها ابنه شيبة والمعروف بعبد المطّلب، وهو جد الرسول الكريم الذي كفل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو طفل بعد وفاة والده عبدالله. وإذا حاولنا تتبع تأريخ هذه الحادثة فإننا نكون أقرب للعقد الأول من القرن السادس الميلادي، أي الفترة التي كانت ما تزال تشهد تواجداً نبطياً في البترا حسب ما دلّت عليه مكتشفات كنيسة البترا الأثرية (Frösén *et al.* 2002)، فهل كان الأنباط في تلك الفترة ما زالوا يمارسون أصناف التجارة ليكون لهم سوق بالقرب من المدينة يعرف بسوق النبط.

ولكن بالإضافة إلى كلمة «النبط» هل وردت كلمة «الأنباط» بالشكل الصريح في المصادر التاريخية العربية؟ يذكر ابن خلّكان في الجزء السادس من كتابه» وفيات الأعيان»، في الصفحة رقم ٣٠٤ ما يرويه على لسان الحسن البصري عندما عابَ خروج يزيد بن المهلب على بني أمية فاتهمه الناس أنه يناصر بني أمية فكان أن نفى ذلك وأنه لا يمكن أن يناصر بني أمية على حد قوله وهم الذين استحلوا المدينة المنورة «حتى أن الأقباط والأنباط ليدخلوا على نساء قريش فينزعون خمورهن عن رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن وسيوفهم على عواتقهم»، وهذه الرواية ذكرها الطبري أيضاً على لسان الحسن البصري في الجزء السادس من تاريخه بما نصّه «أليس هم الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلون أهلها ثلاثة أيام وثلاث ليالي، قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم يدخلوا على نساء قريش فينزعون خمورهن.....» (الطبري ١٩٦١: ٥٨٨).

كما يرد ذكر الأنباط في صحيح مسلم في الباب (٣٣) المعنون بالوعيد الشديد لمن عذّب الناس بغير حق، في حديث عن هشام بن حكيم بن حزام يحمل الرقم (٢٦١٣) حسب تصنيف مسلم ونص الحديث (عن هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنهما أنه مرّ بالشام على أناس من الأنباط، قد أُقيموا في الشمس، وصُبّ على رؤوسهم الزيت، فقال ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج، وفي رواية حبسوا في الجزية. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «إن الله يعذّب الذين يعذّبون الناس في الدنيا» فدخل على الأمير، فحدّثه، فأمر بهم فخلّوا) (مسلم ١٢١٠: ٢٠٠٦). كما ويورد الإمام النووي المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية، هذا الحديث في كتابه رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين تحت الرقم (١٦٠٦) ويُتبعه بعد أن يشير إلى أن الحديث رواه مسلم بعبارة («الأنباط» فلّاحون من العجم)، أمّا عند شرحه للحديث وتفصيله لكلمة الأنباط، فيقول: (ويقال فيهم النبط بفتح أوله، هم قوم من العرب، دخلوا في العجم والروم، واختلطت أنسابهم، وفسدت ألسنتهم، سمّوا بذلك لمعرفتهم بأنباط الماء واستخراجه، لكثرة معالجتهم الفلاحة). (النووي: ١٢١٠). وقد يكون هذا أفضل توصيف عن مفهوم الأنباط لدى المؤرخين العرب الأوائل، قد يوضّح ما التبس في بعض الكتابات العربية المبكرة عند تعريف الأنباط. وقد أيدت ذلك الإكتشافات الأثرية التي أوضحت مدى تأثر الأنباط بالحضارة اليونانية والرومانية من حيث طُرز البناء واستخدام الأسماء والأحرف وحتى في تحوير بعض أسماء الآلهة.

هذه بعض الأمثلة على ورود مصطلح النبط أو الأنباط في المصادر العربية التاريخية، مما يؤكد لنا أن الأنباط ليسوا بالأغراب أو المجهولين عن المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية بغض النظر عن الإختلافات والتشعبات بين المؤرخين على توصيف وتعريف كل من أطلق عليه لفظ النبط أو الأنباط، ولكن ماذا عن ذكر البترا كمدينة أو كموقع في المصادر العربية؟ لقد أثبتت التنقيبات الأثرية في منطقة البترا وجود دلائل استيطان سكاني في مواقع متعددة خلال معظم الفترات الإسلامية وإن كانت نسبة ذلك الإستيطان متفاوته من فترة إلى أخرى والتي غلب عليها الطابع الزراعي في بعض الفترات مثل مواقع الطيبة والنوافلة والصدقة (Amr 2011: 305-313) وكذلك موقع البيضا (Sinibaldi 2011)، ومما لاشك فيه أن البترا قد شهدت مرحلة نزاع للسيطرة عليها في العصور الإسلامية المتوسطة «الفترة الأيوبية والفترة المملوكية» حيث عمل الفرنجة على اتخاذ بعض المواقع الاستراتيجية بها كقلاع عسكرية لهم لإتمام السيطرة على جنوب الأردن وهي التي تبعد حوالي ٣٠ كم من قلعة الشوبك، فظهرت بها القلاع الصليبية مثل قلعة الوعيرة وقلعة الحبيس (Vannini 2011) والتي لم يمض وقت حتى حررتها منهم جيوش صلاح الدين الأيوبي، حيث يذكر المقريزي في الجزء الأول من كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» (المقريزي ١٩٩٧: ٢١٤) عند حديثه عن أحداث سنة ٥٨٤ للهجرة أن صلاح الدين قد بعث الأمير سعد الدين كمبشه الأسدي محاصراً الكرك والشوبك وسلع حتى تسلّمها مع عدة حصون هناك في رمضان. كما كانت البترا معروفة في الفترة المملوكية حيث زارها الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٤ للهجرة/١٢٧٦م وهو في طريقه إلى الكرك ومرّ بقبر النبي هارون وأبدى إعجابه بها، وقد أورد شهاب الدين النويري هذا الخبر في الجزء الثامن والثلاثون من كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» في الصفحة ٩، كما أوردها يوسف غوانمه في كتابه «التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي» (غوانمة ١٩٨٢: ٦٩). كما أورد هذه الزيارة بالتفصيل الدكتور فوزي زيادين في مقال له (Zayadin.1982)

ولكن هل ورد اسم البترا كاسم مكان أو مدينة في المصادر الإسلامية المبكرة؟

في الواقع يرد إسم البتراء في المصادر العربية القديمة كإسم مكان، فيذكر عبدالله البكري في من كتابه «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» عند ذكر مساجد الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابن اسحق ما نصّه «ومسجد بطرف البتراء من ذنب كواكب» (البكري ١٩٨٣: ٦٦)، كما يذكر الطبري في الجزء الثاني من تاريخه اسم (البتراء) كمكان مرّ به الرسول الكريم سنة ست للهجرة في طريق غزوته لبني لحيان بالقرب من المدينة المنورة (الطبري ١٩٦١: ٥٩٥)، وهي نفس الرواية التي ذكرها ابن هشام في الجزء الثاني من سيرته (ابن هشام ١٨٧٨: ١٦٤)، إلا أن وصف المكان وجغرافيته لا ينطبق على مدينة البترا المعروفة لدينا والتي تبعد عن هذا المكان مئات الأميال.

ومن الغريب أن لا نجد ذكراً لمدينة البترا الأثرية في المصادر العربية المبكرة والتي تحدثت عن تاريخ العرب وأسهبت في الوصف وذكر الأخبار فهل من المعقول أنهم كانوا يجهلون وجود هذه المدينة المميزة المنحوتة في الصخر والواقعة على حدودهم الشمالية والتي كانوا تحت سيطرتها في زمن من الأزمان، هل فعلاً غابت عنهم أخبارها حتى بعد أن أصبحت أطلالاً، وهم الذين يعبرون البلدان طولاً وعرضاً بتجارتهم ولا يخفى عليهم مكان في بلاد الروم وفارس والحبشة وافريقيا، فكيف يخفى عليهم مدينة منحوتة بالصخر مجاورة لهم، وكيف تكون مدينة الحجر معروفة لديهم في حين تَخفى عليهم مدينة مثل البترا والتي تُعتبر الحجر جزءً من حضارتها.

في الحقيقة قد يكون من الصعب جداً أن تجد اسم البترا في المصادر العربية الإسلامية المبكرة، فالبترا كما هو معروف مصطلح يوناني يعني الصخر (زيدان ١٩٢٢) وقد أطلقه اليونان على البترا بناءً على لغتهم اليونانية وأعاد إحياءه بيركهارت عندما أعاد إكتشاف البترا سنة ١٨١٢ بناءً على المصادر اليونانية واللاتينية التي اعتمد عليها، ونحن الآن نستخدام هذا الاسم بشكل عفوي، فهذا المصطلح إذن لم يطلقه الأنباط على مدينتهم وبالتالي لم يستخدموه، فهم كعرب سيستخدمون الاسم الذي أطلقوه هم على مدينتهم وحسب لغتهم وهو نفس الاسم الذي يستخدمه بني جلدتهم من القبائل العربية الأخرى وبالذات في شبه الجزيرة العربية، والأمثلة على ذلك كثيرة فعمّان أو ربة عمون التي بقية لمئات السنين تسمى بالاسم اليوناني فيلادلفيا لم يتقبل أهلها من العرب أو إخوانهم في المنطقة والجزيرة العربية ذلك الإسم وظلّوا يطلقون عليها إسم عمّان

دون أن يكترثوا لما يطلق الغريب عليها من أسماء، حتى أنها وردت بأحد الأحاديث النبوية الشريفة بإسم عمّان. إذن ماذا كان الاسم الأصلي أو النبطي للبترا؟ لقد ذهب البعض للقول بأن الاسم الأصلي للبترا هو السلع بناءً على ما أورده ياقوت الحموي في الجزء الثاني من معجم البلدان بأن السلع تعني «شقوق في الجبال واحدها سَلع وسِلع، وسلع حصن بوادي موسى بقرب بيت المقدس» (الحموي ١٩٥٧: ١٥٢٢). في الحقيقة أن موقع السلع معروف لدينا وهو في محافظة الطفيلة ومن المواقع المميزة الذي يشتهر بقلعته التي تحتوي على المسلة البابلية، كما أنه يوجد الكثير من المواقع التي يطلق عليها السلع في شبه الجزيرة العربية نظراً لأن هذا الاسم هو وصف لطبيعة جغرافية. لكن الاسم النبطي الأصلي الذي عرف به الأنباط مدينتهم من الطبيعي أن يكون مشار إليه في نقوشهم النبطية في مدينتهم، فكما توجد نقوش تشير إلى أسماء أشخاصهم وملوكهم وآلهتهم فمن الطبيعي أن يكون هنالك نقوش تذكر اسم مدينتهم، ولقد كانت الفرصة سانحة للكشف عن أحد هذه النقوش عندما تعرضت مدينة البترا في شتاء ١٩٦٤ لكمية كبيرة من الأمطار شكّلت سيلاً كبيراً عند مدخل السيق ليكشف عن أحد هذه النقوش النبطية والذي قام بقراءته عالم الآثار الفرنسي جون ستاركي وقام بنشره في حولية دائرة الآثار العامة (Starcky 1965: 43-49)، والذي يظهر نصّه بوضوح حيث تشير الكتابة إلى الاسم القديم للبترا وهو (ر ق م و) (رقمو) حيث يتحدث النقش عن شخص يدعى تيمو والذي كتب ذلك النقش تكريماً لإبنه بالتبني (أو خادمه) بيترايوس من رقمو والذي مات ودفن في جرشو. ويؤرّخ ستاركي هذا النقش للفترة بين سنة ٥٠-١٠٠م. وقد ساعدني في قراءة هذا النقش والمقالات المنشورة عنه باللغة الفرنسية الدكتور كريستيان أوجيه مشكوراً. وقد اتفق مع ستاركي في قراءته وترجمته لهذا النقش معظم علماء الآثار بما فيهم الدكتور فوزي زيادين وبالذات فيما يتعلق بالاسم النبطي للبترا وهو (رقمو) أما اسم المكان الثاني وهو (جرشو) فيرجّح ستاركي بأنه مدينة جرش في حين يرجّح فوزي زيادين بأنه في شمال الجزيرة العربية قرب الحدود الأردنية.

فهل ورد إسم (رقمو) أو ما يقابله في لهجات شبه الجزيرة العربية وهو (رقيم) في المصارد العربية الإسلامية؟ يورد الإصطخري في كتابه المسالك والممالك أن «الرقيم» مدينة بقرب البلقاء وهي صغيرة منحوتة بيوتها وجدرانها بالصخر كأنها حجر واحد» (الإصطخري ١٩٣٧: ٦٤). والقرآن الكريم الذي أنزله الله بلسانٍ عربي مبين لهداية الناس وعبادة الله الواحد الأحد بدلاً عن الآلهة الكثيرة التي كانت تُعبَد من دونه وخاصةً لدى العرب، عمل على ترهيب العرب وترغيبهم ومخاطبتهم بلسانهم وتذكيرهم بأقوام معروفة لديهم وذكر ما آل إليه حالهم كقوم عادٍ وثمود وذكر لهم أسماءً مناطق يعرفونها كالحِجر ومدين وسبأ وبابل وسيناء وغيرها فهل ورد به اسم الرقيم؟ عند العودة إلى القرآن الكريم نجد أنه يرد اسم الرقيم في الآية رقم (٩) من سورة الكهف (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من أياتنا عجبا) والتي تبدأ بها قصة أصحاب الكهف، هؤلاء الفتية المؤمنون والذين يجمع المفسرون أنهم كانوا على دين عيسى عليه السلام وقد فرّوا من بطش قومهم وإختبؤوا في أحد الكهوف، فكان أن ضرب الله على آذانهم وأنامهم ثلاثماية وتسع سنين ثم أفاقهم ليكونوا آيةً لمن بعدهم، ليجدوا أن الأجيال التي كانت تحاربهم وتكفر بالله وتعبد آلهةً غيره قد ذهبت وبادت وجاء من بعدهم قومٌ يؤمنون بالله، وقد نزلت بهم سورة كاملة في القرآن الكريم وهي سورة الكهف، التي حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين على قراءتها كل يوم جمعة. أما في البحث عن معنى الرقيم فيورد الطبري في تفسيره لسورة الكهف عن ابن عباس أن الرقيم «وادٍ بين عسفان وآيلة دون فلسطين وهو قريب من آيلة» (الطبري ٢٠٠٠)، وقد أورد هذا أيضاً ابن كثير في تفسيره (ابن كثير ١٩٨٢). وآيلة كما نعلم هو اسم مدينة العقبة الحالية والتي تبعد عن مدينة البترا حوالي ١٠٠كم. كما يورد الطبري عدة أقوال في تفسير الرقيم فيذكر الطبري عن قتادة أن الرقيم هو «الوادي الذي به أصحاب الكهف» كما يذكر عن ابن عباس قوله عن الرقيم «يزعم كعب أنها القرية» ويذكر عن الضّحاك أيضاً قوله «أما الكهف فهو غار الوادي والرقيم اسم الوادي»، وهذه الأقوال هي ما ذهب إليها معظم المفسرون.

وفي نهاية السرد القرآني لقصة أصحاب الكهف يذكر القرآن الكريم ما اجتمع عليه أهل ذلك الزمان بعد أن اكتشفوا مكان أصحاب أهل الكهف وعرفوا ما لهم من فضل وكرامة وبعد وفاة هؤلاء الفتية، فقد أجمع الذين غلبوا على أمرهم أن يتم بناء مسجد عليهم، وهذا ما أخبر به القرآن الكريم في الآية رقم (٢١) من سورة الكهف (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً). ولفظ المسجد ليس بالغريب عن اللغة النبطية فقد ظهر في النقوش النبطية في منطقة الحجر أو ما يعرف بمدائن صالح (جوسين وسفينياك ١٩٩٧: ٢١١، اللوحة ٣٩).

فهل تكون البترا أو ما كان يعرف بالرقيم في ذلك الوقت، هي المكان المقصود بالنصّ القرآني، وهل الكهف الذي حدثت به معجزة هؤلاء الفتية هو أحد الكهوف الموجودة في منطقة البترا أو القريبة منها؟ فحسب الوصف القرآني يبدو أنه ليس بالبعيد عن التجمعات السكنية حيث كان يوجد قوم هؤلاء الفتية، ولهذا فقد طلبوا من أحدهم عندما أفاقوا أن يذهب ليشتري لهم الطعام دون أن يلحظه أهل المدينة حتى لا يعيدوهم في ملّتهم كما هو مذكور في الآيات ١٩و ٢٠ من سورة الكهف، إذن هم لم يذهبوا إلى منطقة أخرى بعيدة عن مدينتهم، قد تكون هذه النقطة جديرة بمزيد من البحث والتقصي، فهذه المعجزة تحظى بالإهتمام من أتباع الديانة المسيحية كما هو حالها بالنسبة لأتباع الديانة الإسلامية، وإن كان هنالك بعض الإختلاف في التفاصيل المتعلقة بهذه المعجزة، خاصةً أن مكان حدوثها كان محل جدل واختلاف بين كتّاب التاريخ عبر العديد من القرون، مع الأخذ بعين الإعتبار أن أعمال التنقيب التي قامت بها دائرة الآثار العامة برئاسة الدكتور رفيق الدجاني في منطقة ابوعلندا في عمان والتي تم اعتماد كهف الرجيب بأنه هو الكهف الذي حدثت به تلك المعجزة، كانت سنة ١٩٦٣ (الدجاني ١٩٦٤) أي قبل عام من اكتشاف النقش النبطي عند مدخل السيق (Starcky 1965).

في النهاية أودّ أن أشير إلى أن هذا بحث موجز اجتهدت به ما

استطعت لأتتبّع فيما إذا ورد ذكر أو إشارة عن البترا أو الأنباط في المصادر العربية التاريخية بصورة أو بأخرى وقد يكون جانبني الصواب في جانب وحالفني في جانب، ولكنني أريد أن أشير إلى أنه إذا جانبني الصواب فهو من عند نفسي وإن أصبت فهو بتوفيق من الله عز وجل. وأترك الحكم على ما ورد في هذا البحث للقارئ الكريم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الأزرقي، محمد بن عبدالله

٢٠٠٣ **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. تحقيق عبدالملك بن عبدالله، مكتبة الأسدي.

الإصطخري، ابراهيم بن محمد

١٩٣٧ **المسالك الممالك**. مطبعة بريل. ليدن.

الأفغاني، سعيد

١٩٩٣ **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**. الطبعة الرابعة، دمشق.

ابن خلّكان، احمد بن محمد

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت.

ابن سعد، محمد

١٢٢١ **هجري الطبقات الكبرى**. تحقيق إدوارد سحو. مطبعة بريل، ليدن.

ابن كثير، عماد الدين

١٩٨٢ **تفسير القران العظيم**. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم

٢٠٠٣ **لسان العرب**. دار صادر، لبنان.

ابن هشام، عبدالملك

١٨٧٨ **السيرة النبوية**. مطبعة بولاق، القاهرة.

البكري، عبدالله

١٩٨٣ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع**. تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت.

الحموي، ياقوت

١٩٥٧ **معجم البلدان**، الجزء الثالث. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

الحوت، محمود سليم

١٩٥٥ **في طريق الميثولوجيا عند العرب**.

الدجاني، رفيق

١٩٦٤ **اكتشاف كهف أهل الكهف**. مؤسسة المعارف، بيروت.

زيدان، جورجي

١٩٢٢ **العرب قبل الإسلام**/ الطبعة الثانية، مطبعة الهلال، القاهرة.

الطبري، محمد بن جرير

٢٠٠٠ **جامع البيان في تأويل القرآن**. تحقيق احمد محمد شاكر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

١٩٦١ **تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم. دار المعارف، مصر.

غوانمة، درويش

١٩٨٢ **التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي**. دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

الكلبي، هشام بن محمد

١٩٢٤ **الأصنام**. تحقيق أحمد زكي باشا، الطبعة الثانية. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

المقريزي، احمد بن علي

١٩٩٧ **السلوك لمعرفة دول الملوك**. تحقيق محمد عبدالقادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت.

النويري. شهاب الدين

نهاية الأرب في فنون الأدب. مكتبة المحاكم الشرعية السنية، لبنان.

النووي، يحيى

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين. المكتبة العصرية، بيروت.

النيسابوري، مسلم

٢٠٠٦ **صحيح مسلم**. تحقيق. نظر بن محمد الفاريابي. دار طيبة.

الهمداني، الحسن بن أحمد

١٨٨١ **صفة جزيرة العرب**. مطبعة بريل، ليدن.

Bibliography

Amr, K. and al-Momani, A

2011 *Villages of the Early Islamic Periods in the Petra Region*. Le Proche- Orient de Justinien aux Abbassides Bibliothéque de L'antiquité tradive 19. Paris.

Frosén, J. *et al.*

2002 The Petra Papyri. Vol (I). *ACOR*.

Niemi,.T. *et al.*

2009 Evidence of Nabataean occupation at Qasr at-Tilah. *ADAJ* 53: 108-113.

Sinibaldi, M. and Tuttle, C.

2011 The Brown University Petra Archaeological Project: 2010 Excavation at Islamic Bayda. *ADAJ* 55: 431-450.

Starcky, J.

1965 Nouvelles Steles Funeraires A Petra. *ADAJ* 10: 43-49.

Starcky,J. *et al.*

1967/68 The Temenos Inscriptions. *ADAJ* 12/13: 30-49.

Zayadine, F. and Fares, S.

1998 Tow North-Arabian Inscriptions from the Temple of Lat at Wadi Iram. *ADAJ* 42: 255-258.

Zayadine, F.

1982 Caravan Routes Between Egypt and Nabataea and the Voyage of Sultan Baibars to Petra in 1276. *SHAJ II*: 159-174.